في مفهوم الحداثة عند النخب الشعرية العربية المعاصرة

أدونيس –أنموذجا–

د. بن علي قريش

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة جيلالي ليابس–سيدي بلعباس

ليس ثمّة شك أنّ مفهوم الحداثة، أثار، وما يزال، يثير جدلا كبيرا حول جملة من القضايا الّتي طرحها المنظّرون لها، من الرموز،والروّاد، من المفكرين، والمثقفين، والشعراء، ويبدو أنّ هذا الجدل، سيظل قائما، بسبب اختلاف وتنوّع المشارب الإيديولوجية والفلسفية، والفكرية، والثقافية التي تشبّعت بها النخب العربية المعاصرة، كما يعود هذا الجدل "إلى التمييز بين الواقع والمثال، بين الحقيقة والمنشود، بين ما يراد وما هو موجود"[1] .

فلم ترض بعض النخب بغير مفهوم للحداثة، يقوم على أساس اقتباس الحداثة من الآخر، أي الغرب، واعتبرت هذه النخب هذا الآخر، هو الأصل والمرجع، ونظّرت لحداثة على هذا الأساس، وترى بعض النخب الأخرى أنّ الحداثة، لا تعني أن نقتبس مفهومها من الغرب، ولا بأس بعد ذلك، أن ينفتح الواقع العربيّ على آفاق أخرى من تجارب الآخرين، ومنهم نعيم الباقي. يقول: "الحداثة عندي لا تعني الغرب، ومن ثمّ لا تؤدى إلى الاستيراد، فالأديب الذي يعيش عصره، ويعالج مجتمعه، ويساهم في صنعه، ليس معناه أن يتغرّب، أو ينقل، أو يحاكى، وإنّما معناه أن يستمدّ أدبه، شكلا ومضمونا من واقعه المعاش ، ثمّ لا بأس بعد ذلك أن يعمّق الأدب ويطعمه بالانفتاح على تجارب الآخرين." [2]

ويسوق نعيم الباقي مثالا على تجربة شعرية، عدّت، عند أدونيس نموذجا للحداثة الشعرية هي قصيدة النثر، فيقول: "فقصيدة النثر –مثلا– كلها من نتاج حضارة أخرى، لا نعيش قضاياها، ولا طرائق فنّها، فكيف يصحّ لنا أن نستوردها[؟]" [3]

ويهم من هذا النصّ أنّ أيّ منتوج شعري، لا يخضع للطرائق الفنية للمنظومة الشعرية العربية، لا يعتبر حداثة شعرية، لأنّه ثمرة لخصوصية حضارية وثقافية واجتماعية، لا تنسجم مع الواقع العربيّ، ويرسم نعيم الباقي صورة الحداثة، بوضوح، فيقول:"الحداثة في تطوّر الفكر وتجديد الأدب وإبداع الفن، والخروج من القديم البالي إلى الجديد العلي، أسلوبا ولغة وامتاعا، دون أن ي—

فقد جذوره الحضارية، وتضيع معالمه الأصلية النابعة من الحضارة العربية والفكر الإسلامي والتيّار الإنسانيّ." [4]

أمّا يحي عبد الله المعلمي، فلا يختلف مفهومه للحداثة عن نعيم الباقي من حيث الجوهر، ولكنّه يفضّل في مفهومه للحداثة، فيقول: "مفهومي للحداثة، يتلّخص في التجديد في الأفكار والأخيلة بما يتناسب ومستجدات العصر الذي نعيشه والمستقبل المتطوّر الذي نتطلّع إليه، مع المحافظة على الأسس الثابتة من التمّسك بالدين وثوابت الإيمان واحترام المثل العليا. " [5] .

ومهما كان المعطى الحضاري والثقافي الذي تشكّلت منه هذه المواقف أو المواقف أخرى، على نقيض منها، كما –سنرى–، فإنّها لم تأت من فراغ، ولم تتبلور من غير جذور وأصول ومرجعيات، أمّا الشاعر أدونيس الذي اقترن اسمه بالحداثة،

بكتاباته الجزئية، والصادمة –أحيانا– عن الحداثة، مفهوما، وتنظيرا، وممارسة تطبيقية، فيرى أن التراث، يرافق الشاعر العربي المعاصر، وهذا أمر بديهيّ في منظور أدونيس.

يقول في كتابه (زمن الشعر): "من البداهة أنّ الشاعر العربيّ المعاصر لا يكتب من فراغ بل يكتب ووراءه الماضي وأمامه المستقبل، فهو ضمن تراثه ومرتبط به" [6] ، ويعترف أدونيس بأنّه ممّن تشبعوا بالثقافة الغربية، ولكنّه تجاوز ذلك، ولكنّه أعاد قراءة الترا العربي، بوعي.

يقول: "أحبّ هنا أن أعترف بأنّني كنت بين من أخذ بثقافة الغرب، غير أني كنت، بين الأوائل الذين ما لبثوا أن تجاوزوا ذلك، وقد تسلحوا بوعي ومفهومات تمكّنهم من أن يعيدوا قراءة موروثهم بنظرة جديدة، وأن يحقّقوا استقلالهم الثقافي الذّاتي." [7] .

وقد يكون هذا الاستقلال الثقافيّ الذاتيّ، دفعه إلى الاعتراف بكثير من الشعراء العرب القدامى الذين أبدعوا، ويمكن أن تكون إبداعاتهم نواة للحداثة العربية المعاصرة أو مصدرا من مصادرها مثل أمرئ القيس وأبي نواس، وأبي تمّام، والشريف الرضيّ، والمتنبي، وأبي العلاء المعرّي، والحلاّج، والرازي، وغيرهم من الشعراء والصوفية، وهؤلاء المبدعون هم الذين يجب، كما يرى أدونيس، أن نلتمس في إبداعاتهم الماضي الثقافي [8] . لأنّ هذه العقول الخلاّقة هي الّتي "غيّرت، ورفضت، وتمرّدت على الأليف، والموروث، والعادي، والتقليدي، والتي خلقت، وجدّدت، وأضافت، ولسوف نكمل ما بدأه هؤلاء، فنشك، ونرفض، ونغيّر إذا استطعنا إيقاعات الخليل، نثور، ونهدم، ونعلن الفوضى." [9] ، وهذا يعني، كما يبدو، وكما يفهم من ظاهر النصّ "غياب أيّة مرجعية نهائية إنسانية أو موضوعية، فيتسم العالم بالتعددية والتفتّت والانقطاع والفوضى" وليست قصيدة النثر إلا مظهرا من مظاهر الحداثة الشعرية التي دعا إليها أدونيس، وكان أوّل من نظّر لها، باعتبارها، تقدّم، كما يرى أدونيس رؤيا جديدة، ومقاييس شعرية وجمالية جديدة [10]– أيضا–، وقد جاءت هذه القصيدة، تبحث "عن عالم جديد، عن واقع آخر فيما وراء الواقع" [11] قصيدة النثر عند أدونيس تعبير عن وعي بالشعر، ووعي بالواقع، ووعي بالقصيدة المنشودة الّتي تتجاوز التقليدّي والأليف بما هو رتابة وسكون ولا وعي، ولهذا، فإنّ قصيدة النثر، قد تكون جوابا عن العصر، وعن واقع العصر، وعن رؤيا، وتطلعات العصر، بكل رموزه، وانطلاقا من طبيعة هذا الفهم لقصيدة النثر، يتحدّد مفهوم الحداثة عند أدونيس.

يقول في كتابه "الشعرية العربية":

"يتضمّن القول بالحداثة القول بما لم يكن معروفا في الماضي الحديث من هذه الناحية، يكشف عن نقص ما، عن فراغ ما في القديم، والحداثة، إذن، خروج على الأصول" [12]، ويعني هذا، برأي أدونيس، الخروج على الثابت إلى المتحرك، وعلى المطلق إلى النسبي، وعلى اللاعقلانية إلى العقلانية، وعلى اليقين إلى الشك، وعلى الرؤية الثابتة إلى الرؤية الحيوية والمتحركة، "والرؤية العقلانية تمضي بنا على التسلح بالشك كأداة منهجية معرفية للوصول إلى اليقين"[13] ومهما كانت شساعة المساحة التي يمكن أن تخصّص لمفهوم الحداثة ليست انبهارا بالآخر الثقافي والحضاري والأدبي إلى حدّ الالتحام، ولكن الحداثة حركة تاريخية، جواب أدبّي، من مهامه أن ينجز بناء فكريّا مفاهيميّا جديدا، ومتحرّكا للثقافة والفكر والنقد والشعر "لا ينمو إلا في نوع من الجدلية الضدية... تلك الجدلية التي تبعث في حيواته الروح، وتنشط ميكانزماته، وتشحذ حساسيته باتجاه الانبعاث المتجدّد"[14].

والخلاصة أنّ من مهام الحداثة أن لا تناصب العداء للتراث، لأن الحداثة نفسها، إذا لمتبن حداثتها على أسس معرفية تراثية إيجابية، ترافق الحداثة، ستوفّر فرصة "للأسس" المعرفية السلبية، فتصبح الحداثة حداثة كرجاء.

الهوامش:

1. جمال شحيد، وليد قصّاب، خطاب الحداثة في الأدب، الأصول و المرجعية، دمشق، الطبعة الأولى، 2005، ص110.
2. جمال شحيد، وليد قصّاب، المرجع السابق، ص 112.
3. نقلا عن جمال شحيد، وليد قصّاب، المرجع السابق، ص 112.
4. المرجع نفسه، ص113.
5. جمال شحيد، وليد قصّاب، المرجع السابق، ص 112-113.
6. دار العودة، بيروت، لبنان، 1978، ص45.
7. الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1989، ص86.
8. أنظر أدونيس، زمن الشعر، ص 239.
9. نقلا عن جمال شحيد، وليد قصّاب، المرجع السابق، ص 103.
10. عبد الوهّاب المسيري، فتحي التريكي، الحداثة و ما بعد الحداثة، دار الوعي للنشر و التوزيع، رويبة، الجزائر، الطبعة الثانية، 2012، ص87.
11. نظر، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1979، ص 106.
12. انظر، هاني، أدونيس، شاعر الدهشة و كثافة الكلمة، دار فليتس للنشر و التوزيع، المدية، الجزائر، الطبعة الأولى، د.ت، ص5.
13. دار الآداب، الطبعة الثانية، 1989، بيروت، لبنان، ص83.
14. ذكاء الحرّ، سؤال التحوّل من كينونة إلى صيرورة، إضاءة على الحداثة، مجلة، فكر، عدد 88، 2005، بيروت، لبنان، ص49.